
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

فتاوى الاحتفال بالمولد بالنبوي الشريف بالمغرب والأندلس "بين التّحريم وضرورات الإجازة"

Celebration of the Prophet's Birthday Fatwa "Prophet's Birthday in Maghreb and Andalusia: between Admitting and Forbidding"

Dr. Abdelkrim TAHIR
Hassiba Benbouli Chlef University -Algeria-

د. عبد الكريم طهير
قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف –
abdelkrimtahir@yahoo.fr

ملخص

احتفل سكان بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط بالأعياد والمناسبات الدينية شأنهم في ذلك شأن المجتمعات المسلمة، ومن الأعياد المهمة التي كانت لها مكانة كبيرة في نفوس المجتمع المغربي والأندلسي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وقد حرص سكان بلاد العدوتين على تعظيم ذكرى ميلاد النّبي فأقاموا الاحتفالات التي تعبر عن محبتهم له، لكن الفقهاء كان لهم رأي فيما يخصّ ذلك، فقد صدرت عديد من الفتاوي الفقهية التي كشفت عن شكل هذه الاحتفالات، والتي تضمنت توجيهات وتشريعات اتفقت على محاربة البدع والعادات الغريبة عن المجتمع المسلم، ولكنّها اختلفت في مسألة إجازة أو تحريم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

الكلمات الدالة : الفتاوى، المولد النبوي، العلماء، بلاد المغرب، الأندلس.

Abstract

During the Medieval era, dwellers of Maghreb and Andalusia celebrated feasts (religion festivals) and events. Muslim communities see the prophet's birthday as an event worthy of praise.

Such an anniversary bears a great significance in the hearts of Maghrebians and Andalusians. It is considered as a means to express and show their heartily love and respect to their prophet (peace and blessing be upon him).

Nevertheless, a considerable number of fatwas appear through which jurists and religious scholars view the celebration of birthdays as contradictory to Islamic law. As a matter of fact, jurists differ in whether it is admitting or forbidding.

Keywords: *The fatwas, the prophet's birthday, the scientists, Maghreb, Andalusia.*

مقدمة

مثلت قضية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أحد أهم القضايا التي أثارت اهتمام علماء المغرب والأندلس في العصر الإسلامي الوسيط، فتعددت الفتاوي الفقهية التي عبّر فيها بعض هؤلاء العلماء عن رفضهم لفكرة الاحتفال واعتبارها بدعة من البدع التي يجب محاربتها وتركها، في حين رأى البعض بضرورة الاحتفال بذكرى مولد النّبوي الكريم تعظيما وتبجيلا له. وكان القاسم المشترك لحالتي الرفض والإجازة هي تقليد المسلمون في المغرب والأندلس للنّصارى في احتفالاتهم.

من أهم العلماء الذين أنكروا الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أبوعبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي الشهير بابن الحاج(ت737هـ/1336م)، وأبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي المتوفى 914هـ/1508م، صاحب كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب"، وقد نفى هذان العالمان وجود دليل شرعي يؤكد الاحتفال بالمولد النبوي، كما أنّهم عارضوا طرق الاحتفال ووسائله، بل انتقدوا بشدّة حتّى العلماء الذين أجازوا هذا الاحتفال.

أمّا أبرز العلماء الدّاعين إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فهما القاضي ابن أبو العباس بن محمد العزفي، وهو الذي ألّف في الموضوع كتابا سماه "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" ولم يكمله فأكمله ابنه أبو القاسم، الذي احتفل سنة674 هـ/ 1249 بليلة المولد النبوي، وابن مرزوق التلمساني (ت 781هـ/1379م) صاحب كتاب "جني الجنتين في شرف اللّيلتين" الذي أيّد ما قام به العرفيون في سبيل إحياء ليالي المولد النبوي الشريف في المغرب والأندلس، وأظهر الأعمال المستحبة في هذه اللّيلة.

من خلال هذا العرض سنحاول الوقوف عند ذلك التباين الواضح بين فتاوى علماء المغرب والأندلس فيما يتعلق بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف ذلك أنّ هذه الفتاوي ارتبطت بشكل كبير بالتحولات والتحديات التي أصبحت تواجه مجتمع المغرب والأندلس.

1ـ احتفالات أهل الأندلس والمغرب بالمولد النبوي الشريف

كانت الأندلس خلال العصر الإسلامي تتألف من مجموعة من العناصر البشرية التي اختلفت أصولها وعقائدها وثقافتها، فقد كان فيها أهل البلاد الأصليون[1]، وكان فيها الوافدون من عرب وبربر وموالي، وفيها المالك المجلوبون من بلدان عديدة، إضافة إلى المولدين[2] والمستعربين، واليهود[3]، وكان لابدّ أن تمتزج هذه العناصر وتتفاعل فيما بينها، بعدما اكتسبت كثيرا من عناصر الثقافة الأندلسية كاللّغة وبعض العادات، وأنماط السلوك.

كما كانت الأندلس خلال العصر الإسلامي مرتبطة ارتباطا وثيقا ببلاد المغرب، سواء من خلال ارتباطها الإداري ببلاد المغرب، أو بعد استقلالها عنه، أو بعد وحدتهما السياسية خلال عصري المرابطين والموحدين، فأصبح تاريخهما موصول خلال هذه الفترة، فكانت هناك تحركات بشرية، وعلاقات تجارية وثيقة، ومبادلات ثقافية، وهو ما سمح للنّاس والأفكار أن تنتقل بكل حريّة بين الضفتين، بل تقاسمت العدوتين النّقاش في كثير من القضايا الثقافية والعلمية، ومنها مسألة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف التي شغلت بال علماء المغرب والأندلس.

كانت الأعياد والاحتفالات في الأندلس كثيرة ومتنوعة: فهناك أعياد ذات طابع مستقل انفردت بها الأندلس بحكم البيئة المحلية والموقع الجغرافي الأوروبي الذي تميزت به، منها الاحتفال بكثير من الأعياد القومية والاجتماعية، كما وجدت احتفالات ذات صبغة دينية، ومنها احتفالات مسيحية، وهناك أعياد أخرى ارتبطت بانتماء الأندلس إلى الحضارة الإسلامية، مثل عيدي الفطر والأضحى، وهي أعياد متعلقة بواجبات الأندلسيين الدينية[4]، إضافة إلى احتفالات شاركت فيها الأندلس عامّة المسلمين أبرزها الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وهو الاحتفال الذي سنتوقف عنده بالوصف في بلاد الأندلس والمغرب مع التركيز على موقف العلماء منه.

شارك الأندلسيين المسيحيين بالأندلس في كثير من أعيادهم مثل: عيد ميلاد المسيح، ورأس السنة الميلادية(يناير)، وعيد العنصرة أو عيد سان خوان الذي تحتفل به إسبانيا في 24 يونيو، وخميس أبريل أو خميس العهد الذي يسبق عيد الفصح بثلاثة أيام[5]، وكانت بعض هذه الاحتفالات تلفت أنظار المسلمين وتدهشهم لأنّهم تعودوا على أداء شعائرهم ببساطة، على خلاف الاحتفالات المسيحية التي كانت تؤدى بحضور مواكب كثيرة وبفخامة كبيرة[6]، بل أنّ بعض المسلمين أعجبوا بطريقة النّصارى في أداء طقوسهم الدينية[7]، كما أنّ بعض النساء المسلمات كنّ يزرن الكنائس، إمّا للتفرج على الاحتفالات الدينية والمواكب التي تجري فيها بمناسبة الأعياد، أو مصاحبة صديقاتهن المسيحيات[8]، لذلك طالب ابن عبدون[9] أحد فقهاء الأندلس خلال العصر المرابطي بأن تمنع الإفرنجيات من الدخول إلى الكنيسة، إلّا في يوم فضل أو عيد، فإنّهن يأكلن ويشربن ويزنين مع القسيسين، وهذا يدّل على وجود عدد كبير منهم في المدن الأندلسية، وعلى شيوع عادة دخول النساء إلى الكنائس في غير أيام الأعياد والأيام المشهودة [10] ، وقد أشار أبو بكر الطرطوشي إلى أنّ الأندلسيين في هذه الأعياد يبتاعون الفواكه والحلوى من المجبنات والإسفنج كالعجم تماما واعتبر هذا من البدع [11] .

كما احتفل الأندلسيون بأعيادهم القومية مثل عيد العصير Alacir الذي كان يقام عند جني محصول العنب وعصره، وهو المحصول الرئيسي في البلد، فكان الأهل يغادرون ديارهم وينتقلون إلى حقول الكروم حيث يقيمون عدّة أيام أجمع المحصول في جوّ يسوده المرح والغناء والمرقص، وهي عادة مستمرة إلى يومنا هذا في إسبانيا [12] .

أمّا فيما يخص احتفالات الأندلسيين الإسلامية فقد كان من أعيادهم المشهورة ومواسمهم المذكورة تعظيم ليلة المولد

النبوي الشريف، وذلك لأجل محبتهم لمن ولد فيه، وهو سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم، وقد حرص الأندلسيون على الاحتفال بالمولد النبوي حرصا شديدا [13] ، فاحتفلوا به احتفالا كبيرا على الصعيدين الرسمي و الشعبي بمواكب الشموع، كما اهتموا بالكتابة حول هذه المناسبة الشريفة [14] ، ويبدوا أنّ اهتمام الأندلسيين بالمولد النبوي جاء تأثرا بالبيئة الأوروبية التي كانوا يحيونها، وبشعورهم بالتحدي أمام الاحتفالات الضخمة التي كان يقيمها جيرانهم المسيحيين للاحتفال بأعياد الميلاد، وكلّ هذا يؤكد أنّ الأندلسيين بمجاورتهم المسيحيين كان أمامهم طريقين: إمّا مشاركتهم للمسيحيين احتفالاتهم، وهو ما تم في بعض الأحيان، أو تحدي هذه الاحتفالات بخلق احتفال يحمل نفس المعاني والمغازي تكون شبيهة أو تضاهي الاحتفالات المسيحية وهو ما كان من خلال الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

وقد جرت العادة أن يحتفل الأندلسيون بأعيادهم ومواسمهم وانتصاراتهم وزواجهم وأعذار(ختان) أبنائهم بوسائل مختلفة أهمها الغناء، الموسيقى، الرقص، ألعاب الفروسية، سباق الخيل والحمام، مصارعة الوحوش، وحفلات الصيد، والقنص وتلاوة آيات من القرآن الكريم في الاحتفالات الدينية، وإنشاد القصائد المناسبة للمقام، إلى جانب الموشحات الدينية، وحلقات الذكر التي كان يصاحبها العزف على أحد المزامير، وفي آخر اللّيل تقدم الأطعمة والحلوى[15]، وكانت الاحتفالات بالمولد النبوي تقام في المساجد، الربط، القصور، الساحات والحلبات، كما أقيمت في قصر الحمراء، وبحدائقه الواسعة، كما كانت تقام في الهواء الطلق من أجل أن يشارك فيه جميع المسلمين [16] ، ومن خلال ذلك يمكن القول أنّ أصل احتفال الأندلسيين بالمولد النبوي كتقليد لاحتفال النّصارى بميلاد المسيح عليه السلام أمر وارد، ولكنّه غير مؤكد لأنّ الأندلسيين ليسوا أوّل من احتفل به كما ذكرنا.

أمّا في بلاد المغرب فاحتفل المسلمون بالمولد النبوي الشريف مقتدين في ذلك بالأندلسيين، فقد كان لأهل المغرب فرص كثيرة للاحتكاك والاتصال بنظرائهم الأندلسيين من خلال عبورهم إلى العدوة الأندلسية سواءا برسم الجهاد أو بدافع الهجرة، ونتيجة لذلك انتقلت العديد من الظواهر الاجتماعية من الأندلس إلى بلاد المغرب، حيث ذكر الطرطوشي في هذا الصدد "أنّه ما عبر من ذلك البّر(الأندلس) إلى هذا البّر بدعة، ويدّل هذا القول على انتقال عادات أهل الأندلس إلى بلاد المغرب، حيث وجدت على ما يبدوا بعض الاحتفالات الأندلسية صدى لها في المغرب الأقصى، فبدت مراكش مثلا في أواخر العهد المرابطي زاخرة بالحياة المترفة الرفيعة[17]، وانتشرت بمدن المغرب أدوات اللّهو والغناء، كمدينة فاس التي امتلأت حوانيتها بأنواع مختلفة من أدوات الموسيقى والغناء[18]، ويبدوا أنّ هذه الآلات كانت تمثل مصدر دخل لأصحاب الحوانيت[19]، ومن أهم المناسبات التي تناقلها أهل بلاد المغرب، واحتفلوا بها، المولد النبوي الشريف، فكانت النساء في بلاد المغرب يولولون في هذه المناسبة الدينية، وكان النّاس يشطحون على غناء السمعين، كعادة أهل الأندلس [20]، وهذا كلّه يبين مدى تأثر سلوك أهل المغرب بالأندلسيين.

وكان الاحتفال بالمولد النبوي يلقى اهتماما كبيرا من قبل ولاة الأمر وسائر طبقات المجتمع المغربي حيث اعتاد الناس الاحتفال بتلك الليلة بإيقاد الشمع، والتزيّن بما حسن من الثياب، وركوب فاره الدّواب لإظهار الفرح والسّرور بمولده عليه السلام، وكانت تكثر في تلك المناسبات الصدقات على الفقراء، والمساكين، واليتامى، وإعداد أطعمة لهم، وكان الأثرياء يحرصون أيضا على إقامة الولائم التي يدعى إليها الأصدقاء، ولا يحبذون صيام هذا اليوم لأنّه في نظرهم لا يستقيم فيه الصيام لأنه يوم عيد [21] .

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الاحتفالات الخاصّة بالمولد النبوي الشريف لم تكن تلقى تأييدا كبيرا من قبل الفقهاء سواءا في الأندلس أو بلاد المغرب، خاصّة وأنّها حسب زعمهم كان يصاحبها كثير مظاهر اللّهو والترف والإسراف، فقد أشار الطرطوشي مثلا إلى خروج الرجال مع النساء مختلطين للتفرج في أيام الأعياد والاحتفالات، وكانوا يذهبون إلى ساحة المصلى حيث يُقمن الخيام للتفرج، وليس للصلاة [22].

2ـ فتاوي علماء المغرب والأندلس في تحريم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

انطلاقا ممّا تقدم يتبين لنا أنّ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بالمغرب والأندلس أصبح ظاهرة اجتماعية لافتة، استدعت تدخل العلماء للتصدي لها لأنّها في نظرهم لم تكن تستند إلى أساس شرعي، فظهرت بهذا الخصوص عدد لايحصى من الفتاوي اختصرناه في بعض منها:

ـ فتوى أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المالكي [23] المتوفى سنة 474هـ/1081م، ألّف رسالة "حكم بدعة الاجتماع في مولد النّبي صلّى الله عليه وسلم، نشرت الرسالة في مجلة الإصلاح، أنكر فيها الباجي الاحتفال بالمولد النبوي وحكم عليه بالبدعة، ورأى أنّ الاحتفال به محرّم "ولا يختلف على تحريمه اثنان، ولا يستحسنه ذوو المروءة الفتيان، وإنّما يحل ذلك بنفوس موتى القلوب، وغير المستقلين بالآثام والذنوب، وأزيدك أنّهم يرونه من العبادات، لا من الأمور المنكرات المحرمات" كما أنّه أنكر أصل وجود المولد حيث قال "لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولا ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة، الذين هم القدوة في الدّين، المتمسكون بآثار المتقدمين"، بل اعتبره بدعة "أحدثها البّطالون، وشهوة نفس اغتنى بها الأكالون"، ويزيد في ذلك حينما يقول أنّنا لا نستطيع أن نضع عليه الأحكام الخمسة: فهو ليس بواجب، ولا مندوبا، أو مباحا، فلم يبق إلاّ أن يكون مكروها أو حراما وهو حرام"[24].

ـ فتوى لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي الشهير بابن الحاج [25] ، المتوفى 737هـ/1336م، الذي خصّص فصلا

للحديث عن المولد النّبوي في كتابه "المدخل" في جزئه الثاني، فأتقن الكلام فيه جدّا، وحاصله مدح ما كان فيه من إظهار شعار وشكر، وذمّ ما احتوى عليه من محرمات ومنكرات [26]، فقد أبدى ابن الحاج شيئا من اللّيونة في مسألة الاحتفال، إلاّ أنّه عارض كلّ مظاهر الاحتفال التي تخالف الشّرع الإسلامي، وإذا كان الحال كذلك فإنّنا نقول أنّ ابن الحاج قد أنكر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، حيث يقول ابن الحاج "ينبغي أن نحترم هذا اليوم أشدّ الاحترام ونفضله بما فضل الله به الأشهر الفاضلة" [27]، "فصوم يوم الإثنين فيه فضل عظيم لأنّه ولد فيه صلى الله عليه وسلم، ولذلك ينبغي أن يكرم هذا الشهر ويعظم ويحترم الاحترام اللاّئق به، وذلك بالاتباع له صلى الله عليه وسلم، فالنّبي صلّى الله عليه وسلم كان يخص الأوقات الفاضلة بزيادة فعل البر فيها وكثرة الخيرات، والنّبي كان أجود مايكون في رمضان، فتمثل صلّى الله عليه وسلم تعظيم الأوقات الفاضلة بما امتثله عليه الصلاة والسلام على قدر استطاعتنا" [28] ، ولكن النّبي صلّى الله عليه وسلم لم يلتزم في هذا الشهر العظيم ما التزم به في الأشهر الفاضلة، وذلك لكونه يريد التخفيف عن أمته والرحمة بهم" [29] ، فعلى هذا فتعظيم هذا الشهر الشريف [30] إنّما يكون بزيادة الأعمال الزاكيات فيه والصدقات إلى غير ذلك من القربات فمن عجز عن ذلك فأقل أحواله أن يجتنب ما يحرم عليه ويكره له تعظيما لهذا الشهر الشريف ، لكن ابن الحاج يرى أنّ المحتفلين بالمولد النبوي لم يلتزموا بذلك "وقد ارتكب بعضهم في هذا الزمان ضدّ هذا المعنى وهو أنّه إذا دخل هذا الشهر الشريف تسارعوا إلى اللّهو واللّعب بالدف والشبابة وغيرهما[31]، بل انتقد ابن الحاج حتّى العبادات التي كانت تقام في هذه المناسبة، التي كانت تتراوح بين قراءة القرآن، وسماع اللّهو، فاعتبر ذلك شكلا من أشكال النفاق، كما أنّ السامعين يحبون أن ينتهي القارئ من قراءته حتى يستمعون إلى الغناء، وكلّ ذلك فيه عمل للذنوب بدون استحياء، مع أنّهم يطالبون الأجر من ربّ العالمين[32]، ولم يقتصر الأمر على عامّة النّاس بل شمل حسب ابن الحاج من يوصفون بأنّهم أهل علم ويقصد بذلك طبقة الصوفية خاصّة منهم من كان يتكفل بتربية الموريدين[33] ، كما أنكر ابن الحاج ما يحدث في هذه المناسبة من اختلاط بين الرجال والنّساء وما يتبع ذلك من ارتكاب للمعاصي[34] ، "فانظر رحمنا الله وإيّاك إلى مخالفة السنة ما أشنعها وما أقبحها وكيف تجر إلى المحرمات، ألا ترى أنّهم لمّا خالفوا السنة المطّهرة وفعلوا المولد لم يقتصروا على فعله بل زادوا عليه ... من الأباطيل المتعددة فالسعيد السعيد من شدّ يده على امتثال الكتاب والسنة والطريق الموصلة إلى ذلك وهي اتباع السلف الماضين رضوان الله عليهم أجمعين لأنّهم أعلم بالسّنة منّا..."[35].

والواضح أنّ ابن الحاج لم يذم المولد، بل ذمّ ما يحتوي عليه من المحرمات والمنكرات، فهو حسب رأيه بدعة بنفس نيته فقط، إذ أنّ ذلك زيادة في الدين وليس من عمل السلف الماضين، وأتباع السلف الأوّل، وأمّا ذمّ المولد بالنسبة لابن الحاج إنّما يكون من منطلق عدم توفر النية الصالحة، لا من أصل عمل المولد [36] .

ـ فتوى لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي المتوفى 914هـ/1508م، صاحب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب"، والذي يرى أنّ المولد وإن كان معظما عند المسلمين لكن وقعت فيه قضايا أخرجته إلى ارتكاب بعض البدع من كثرة الاجتماع فيه، أي اجتماع على آلات اللّهو إلى غير ذلك من البدع غير المشروعة والتّعظيم له صلى الله عليه وسلم هو باتباع السنن والاقتداء بالأثار، لا بإحداث بدع لم تكن للسلف الصالح [37].

3ـ فتاوى إجازة الاحتفال بالمولد النبوي

في الوقت الذي كان فيه بعض علماء بلاد المغرب والأندلس ينظرون إلى الاحتفال بمولد النّبي على أنّه بدعة [38] ، ظهر كتاب أبو العباس العزفي [39] (ت633هـ/1235م) من خلال مؤلفه "الدّر المنظم في مولد النّبي المعظم" ولم يكمله فأكمله ابنه أبو القاسم[40]، حيث استعرضا من خلاله مراسيم الاحتفال بالمولد النّبوي الشريف والشّعائر التي تقام وموقف العلماء والفقهاء من البدع والأفعال والعادات والتقاليد الغريبة على الإسلام[41]، ودعا الناس الى ضرورة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف [42] ، حيث جاء فيه".. فيا أمّة محمد، ويا خيرة الأمم كفى بنا جفاءا لأن لا نعرف ميلاد نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، ولا نعرفه وهو أهم، ونتعرّف ميلاد غيره من الأنبياء كميلاد عيسى، ويحي وبن زكريا، ولا علم لنا بهم في من جاء من الأنبياء، أو لم يكن سؤالهم عن ميلاد نبيهم عليه أفضل الصلاة وأطيب السلام والتحيات أحق وأولى، والتّهمم به وبمعرفته أحمد سعيا" [43] .

فمن خلال تأمل العزفي لما كان يحدث في المجتمع الأندلسي من تهرب بعض المسلمين من الاحتفال بالمولد النبوي الشريف والانصراف إلى تقليد المسيحيين في احتفالاتهم بالسّيد المسيح ويحي بن زكريا عليهما السلام، تبيّن له وجود تقليد فاضح لأعياد النّصارى[44]، بل أنّ أهل سبتة المسلمين من بلاد المغرب الأقصى قد قلّدوا النّصارى في احتفالهم بعيد الميلاد[45]، لذلك رأى العزفي أنّ الأجدر بالمسلمين الاهتمام بأعيادهم الإسلامية وإقامة الشعائر لها[46]، ولم يتوقف الأمر عند الدّعوة للاحتفال بل قام هو نفسه سنة 674هـ/1249م بالاحتفال بليلة المولد النبوي[47] ، ووّزع على الناس كل أنواع الطعام، وكان دافع الفقيه أبو القاسم محمد العزفي من وراء بعث هذه العادة بالبلاد كما ذكرنا مارآه من اتباع المسلمين للمسيحيين في احياء أعيادهم، ورغبته في أن يشتغل النّاس باحياء ذكرى نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم دون غيره من الاحتفالات [48].

ففي تلك اللّيلة التي أقام فيها أبو القاسم العزفي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لم يتوقف أهل سبتة نمدح محمد صلى الله عليه وسلم في كل مكان [49]، وخاصّة في المساجد [50]، ولم يشمل الاحتفال مدينة سبتة فقط، بل عمّ المغرب الاسلامي كلّه [51] ،

وقد ذكر ابن عباد الرندي(792هـ/1390م) انّ الأمير العزفي لم يبلغ كليّة غرضه في ابطال أمر النيروز والمهرجان [52] .

إنّ احتفال العزفيين بالمولد النبوي الشريف لم يكن يعني أنّ الاحتفالات لم تكن قبل ذلك في بلاد المغرب، فمن المحتمل أن يكون الرعايا قد احتفلوا به بطريقة تلقائية[53]، حيث كانت الاحتفالات قبل هذا التاريخ تحمل صفة اجتماعية إلى أن جعلها حاكم سبتة أبو العباس السبتي، وولده أبو القاسم العزفي، مناسبة رسمية في سبتة وغرناطة، وباقي المدن في المغرب والأندلس[54].

ومنذ أن أقرّ العزفيون الاحتفال بالمولد النبوي أضحى يلقى اهتماما كبيرا من قبل ولاة الأمر وسائر طبقات المجتمع المغربي[55] ، ففي عهد الدّولة المرينية كان الاحتفال يتم بحضور فحول الشعراء حيث يقوم واحد منهم بإنشاء قصيدته المولدية، وحسب ما يقضي به رجال أكفاء يعطي الملك الفائز من الشعراء مائة مثقال وفرسا وجارية، ويخلع عليه الكسوة التي يكون لابسا لها[56]، وأوّل من اعتنى بتعظيمه من بني مرين السلطان أبو عنان المريني(729-758هـ/1329-1358م)، "ثم اقتدى به بن أبي حفص في الدّيار التونسية، وأوّلهم أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز(762-837هـ/1361-1434م) وكان في أوّل المائة الثامنة، واقتدت به بنو حفص من بعده، ولم تزل عادتهم مستمرة على تعظيمه" [58] ، ومن ملوك تلمسان الذين خصّوا المناسبة باحتفالات ضخمة الملك أبو حمو موسى الثّاني(723-791هـ/1322-1388م) الذي جعل له مراسم ضخمة يشارك فيها الأشراف، كما كانت تلقى على الأسماع أناشيد لمدح النّبي، وتقدم في آخر اللّيل كلّ أنواع الطّعام، كما كانت الاحتفالات تستمر إلى صلاة الصبح ، هذا وقد كان المنصور السعدي(956 -1011هـ/1549-1603م) يبالغ في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فكان يأمر بتطريز الشّموع، وإتقان صنعتها، وتهيّئ لحملها وزفاف كواعبها المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف ثم يتبعها بالطّبول والأبواق وأصحاب المعازف والملاهي فإذا استقر بهم المجلس تقدم الوعاظ فسردوا جملة من فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا فرغوا تبارى الشعراء[59] .

اعتاد النّاس الاحتفال بمناسبة المولد النبوي بإيقاد الشموع، والتزين بما حسن من الثياب، وركوب فاره الدّواب لإظهار الفرح والسرور بمولده عليه السلام، كما كانت تكثر في تلك المناسبة الصدقات على الفقراء والمساكين واليتامى، وكانوا يصنعون الأطعمة الفاخرة التي يجعلها بعضهم للمباهاة والتفاخر[60]، وكان الأثرياء من الفقهاء يحرصون أيضا على إقامة الولائم عند المعلمين، وعلى إيقاد الشمع في الكتاتيب، والاجتماع مع صبيانهم للصلاة على النّبي، وتلاوة ما تيّسر من القرآن، وإنشاد بعض القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم، وتكون تلك الليلة أشهر ليالي سنتهم، وجرت العادة أيضا في هذه المناسبة بتزيين الكتاتيب وربّما يجعلون ديدبانات وهي المعبر عنها بالاصطلبات، وتقرأ فيها التخاميس [61] .

وكان الصبيان يطالبون أباءهم بشراء الشّمع وتقديمه لمؤدبهم في حانوته [62] ، ويحتفلون بهذه المناسبة بإيقاد الشموع فيحمل بعض الأطفال شمعة تزن ثلاثين رطلا أو أكثر أو أقل، وهي شموع جميلة مزخرفة جدّا مزدانة أطرافها بفواكه عديدة من الشمع توقد في مطلع الفجر وتطفا عند بزوغ الشمس، حيث ينتهي الاحتفال [63] ، كما كانت ليلة سابع المولد النبوي مناسبة للاحتفال أيضا حيث يحتفل بها بمثل احتفال ليلة المولد أو أعظم [64] .

ساند عديد من الفقهاء مسعى العزفيين في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ومنهم على سبيل المثال لا الحصر صاحب كتاب "جنى الجنتين في شرف اللّيلتين" ابن مرزوق التلمساني(ت781هـ/1379م)، وهو كتاب عظيم ينبئ عن اطلاع واسع، خصص فيه ابن مرزوق قسما للحديث عن المولد النبوي الشريف في الأندلس والمغرب، أكدّ فيه في وجوب ما قام به العزفيون في سبيل إحياء ليالي المولد النبوي الشريف في المغرب والأندلس، حيث نقل عن بعض علماء المغرب بالفتاوي والآراء بقولهم "أنّ المسلك الذي سلكه العزفي مسلك حسن لأنّ المشتغل في هذه اللّيلة بالصلاة على النّبي، والقيام بإحياء سننه إليه، ومساهمتهم، وتعظيم حرفتهم والاستكثار من الصدقة وأعمال البر وإعانة الملهوف، ونصر المظلوم، هو أفضل ممّا سوى ذلك ممّا أحدث إذ لا يخلو لا من مزاحم في النيّة أو مفسد للعمل ولا دخول الشهرة وطريق الحق والسلامة ومعروف ولا أفضل في هذه اللّيلة ممّا ذكرناه من أعمال البّر والاستكثار من الصلاة لا يحظى المستكثر فيها بعض ما ورد في فضلها" [65]، بل يزيد ابن مرزوق في تعظيم ليلة مولد النبي إذ يعتبرها أفضل من ليلة القدر ويقدم مجموعة هامّة من البراهين على ذلك [66]، فيقول: "وأنّ ماختصت به ليلة المولد النّبوي المشرف أعمّ نفعا، فإنّ ثمرة العلمل في ليلة القدر إنّما يعود بالنفع على العامل فقط دون غيره، وليلة المولد عاد نفعها على كل الخلائق"[67].

الخاتمة

من خلال هذا العرض يستخلص أنّ هناك تباين واضح بين فتاوي علماء المغرب والأندلس فيما يتعلق بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف فلم تتفق كلمة العلماء حول الاحتفال، فكان فيهم من ينكر ذلك، وكان منهم من أجازه، غير أنّ الذين لم يعارضوه أوصوا بالاحتراس من تسرب البدع إلى حفلاته. كما أنّ اللاّفت للانتباه أنّ هذه الفتاوي ارتبطت بشكل كبير بالتحولات والتحديات التي أصبحت تواجه مجتمع المغرب والأندلس، ومنها على وجه التحديد مجاورة المسلمين للنّصارى، ذلك أنّ هذه البيئة فرضت على عامّة الناس الاحتفال، وألزمت الفقهاء التدخل لمنع أو إجازة الاحتفال.

الهوامش

1- تتكوّن هذه الفئة من الرومان، والقوط، وبعض العناصر الأوروبية الأخرى كالنورمانديين أو الفايكنج، ثم الصّقالبة، إضافة إلى الجماعات اليهودية القديمة. وقد دخلت جماعات كبيرة منها إلى الإسلام، ولكن إسلامهم لم يكن يعني القضاء على ثقافتهم الوطنية، أحمد أبو زيد، حضارة الأندلس، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، أفريل- ماي- يونيو 1981، ص6.

2- أدّى زواج المسلمين من الإسبانيات المسيحيات إلى ظهور عنصر مسلم جديد عرف باسم المولدين الذين أصبحوا بمرور الزمن يؤلفون معظم سكان الأندلس، ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، تر: ذوقان قرطوط، منشورات دار مكتبة الحياة، د ت، ص17.

3- السيد عبد العزيز سالم، المسلمون وآثارهم في الأندلس(من الفتح العربي حتّى سقوط الخلافة بقرطبة)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ت، ص-130 133.

4- اعتاد النّاس على الاحتفال برؤية هلال شهر شوّال حيث كانت تقرع الطبول احتفالا بليلة العيد، وترفع الراية فوق صومعة جامع يوسف بن تاشفين علامة على الابتهاج، بالإضافة إلى ارتداء الكبار والصغار للثياب الجديدة، مارمول كربخال، أفريقيا، ج2، تر: محمد ونيبر، محمد الأخضر، وأخرون، دار المعارف الجديدة، الرباط، 1409هـ/1989م، ص54، محمد بشير العامري، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، ط1، دار غيداء للنّشر والتوزيع، 1414هـ/2012م، ص22.

5- أبو بكر الطرطوشي، كتاب الحوادث و البدع، تح: على بن حسن بن علي بن عبد الحميد الأثري الحلبي، دار ابن الجوزي، ص ص150، 151.

6- كان الوزير الكاتب أبا عامر بن شهيد قد بات ليلة في إحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس، وعرشت بسرور وائتناس، وقرع النواقيس يهيّج سمعه، وبرق الحميا يسرع لمعه، والقس قد برز في عبدة المسيح، متوحشا بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح وأطرحوا النعم كل إطراح، المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: احسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1988م، ص525.

7- المصدر نفسه، ص ص 525 ، 526، ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، تح: احسان عباس، القسم الأوّل، مجلد2 ، دار الثقافة، بيروت، 1471هـ/1997م، ص ص 705 ، 707 .

8- ابن عبدون، رسالة في الحسبة، تح: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955م ص ص48 ، 49، ابن بسام، المصدر السابق، ص 705.

9- ابن عبدون، المصدر السابق، ص 48.

10- إن كان ابن عبدون متشددا مع النّصارى في هذه المسألة فإنّ ذلك يرتبط بميزة العصر المرابطي الذي عاصره والذي تميّز بالتشدد في الدين، فإنّ ذلك لم يمنع من أنّ النّصارى كانوا يقيمون شعائرهم حتّى أنّهم كانوا يضربون نواقيس كنائسهم في الاحتفالات، الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، ج2، أخرجه مجموعة من الفقهاء، 1981م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص218، 226.

11- أبو بكر الطرطوشي، المصدر السابق، ص151.

12- أحمد مختار العبادي، الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، يوليو- أغسطس- سبتمبر، 1979، ص.391

13- بدأ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بقيام دولة الفاطميين بمصر، وكان الاحتفال به يتم ضمن الاحتفال بستة مواليد وهي مولده صلى الله عليه وسلم، ومولد علي بن علي بن أبي طالب، والحسن والحسين، وفاطمة الزهراء والسادس هو مولد الخليفة الحاضر، المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار(الخطط المقريزية)، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د ت، ص490، محمد المنوني، ورقات ن حضارة المرنيين، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط2، 1996، ص517.

14- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص391.

15- المرجع نفسه، ص391.

16- محمد بشير العامري، المرجع السابق، ص 19.

17- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، مصر، د ت، ص434.

18- السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير في العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص772.

19- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، دار الوفاء للطّباعة والنّشر، الإسكندرية، د ت ، ص178.

20- محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1402هـ/1982م، ص112.

21- كمال أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، الإسكندرية، 1991م، ص44.

22- أبو بكر الطرطوشي، المصدر السابق، ص151.

23- كان من علماء الأندلس وحفاظها سكن شرق الأندلس، والباجي نسبة إلى باجة وهي مدينة بالأندلس، رحل إلى المشرق، واستقر ببغداد يقرأ الحديث ويدرس الفقه، لقي بها أبا الطيّب الطبري، وأبا اسحاق الشيرازي، له كتاب: "التجريح والتعديل فيمن روى عنه البخاري في الصحيح". وغير ذلك وهو أحد أئمة المسلمين، وكان قد رجع إلى الأندلس وولي القضاء هناك، توفي بألمرية سنة 471هـ/1078م، أخذ عنه ابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب وبينه وبين أبي محمد بن حزم الظاهري مجالسات، ومناظرات، وفصول يطول شرحها.

24- عبد الظاهر أبو السمح، حكم بدعة الاجتماع في مولد النبي صلى الله عليه و سلم لأبي الوليد الباجي، مجلة الإصلاح(مجلة دينية، علمية، اجتماعية، أخلاقية)، م1، ع5، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1347هـ/1928م، ص278.

25- هو محمد بن محمد بن الحاج، أبو عبد الله العبدري المالكي الفاسي، فاضل، تفقه في بلاده، وحجّ، وكفّ بصره في آخر عمره وأقعد، توفي بالقاهرة سنة 737هـ عن نحو ثمانين عاما، له مدخل الشّرع الشريف، وشموس الأنوار كنوز الأسرار، وبلوغ المقصد والمني في خوّاص أسماء الله الحسنى، ابن حجر العسقلاني، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج4، دار إحياء التراث العربي، د ت، ص237.

26- جلال الدين السيوطي، حسن المقصد في عمل المولد، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ/1975م، ص56.

27- ابن الحاج الفاسي، المدخل، ج2، مكتبة دار التراث، القاهرة، د ت، ص ص6-9، 10.

28- المصدر نفسه، ج2، ص3.

29- المصدر نفسه، ج2، ص3.

30- المصدر نفسه، ج2، ص 4.

31- المصدر نفسه، ج2، ص4.

32- المصدر نفسه، ج2، ص5.

33- المصدر نفسه، ج2، ص 6.

34- المصدر نفسه، ج2، ص ص 6-9 ، 10.

35- المصدر نفسه، ج2، ص 6.

36- جلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص62.

37- الونشريسي، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية و الأندلس والمغرب، ج8، أخرجه مجموعة من الفقهاء، 1981م، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص252.

38- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 391.

39- عن حياة الفقيه أبو العباس العزفي، وولده أبو القاسم ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله، ج3، ط1، مكتبة الخانجي للطبع والنّشر والتوزيع، 1395هـ/1975م، ص11-17، ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: محمد الكتاني، محمد بن تاويت وأخرين، ط1، قسم الموحدين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1406هـ/1985م، ص 419.

40- محمد بن تاويت، المرجع السابق، ص117.

41- محمد بشير العامري، المرجع السابق، ص 16.

42- محمد المنوني، المرجع السابق، ص 539.

43- محمد بشير العامري، المرجع السابق، ص 16.

44- المرجع نفسه، ص 16.

45- محمد بن تاويت، المرجع السابق، ص 117.

46- محمد بشير العامري، المرجع السابق، ص 16.

47- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 398.

48- جمال أحمد طه، المرجع السابق، ص 352.

49- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 398.

50- المصدر نفسه، ص 399.

51- محمد المنوني، المرجع السابق، ص537.

52- عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988م، ص 329.

53- القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ص 91.

54- محمد بشير العامري، المرجع السابق، ص 16.

55- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص44.

56- حسن الوزان، وصف أفريقيا، تح: محمد حجي، محمد الأخضر، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص260.

57- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تح: محمد شمّام، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، د ت ، ص290.

58- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود آغا أبو عياد، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2011م، ص196.

59- محمد بن تاويت ومحمد الصادق فيفي، الأدب المغربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1960، ص 508.

60- ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 290.

61- المصدر نفسه، ص290، كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص44.

62- حسن الوزان، المصدر السابق، 261.

63- المصدر نفسه، ص 262.

64- محمد عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 196.

65- محمد بشير العامري، المرجع السابق، ص 18.

66- الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص280 -284.

67- المصدر نفسه، ج11، ص285.